الفصل الخامس

السفير وحاجي بابا يسافران

أخذنا غير الخطابين المتقدمين خطابات أخرى من وزرائنا إلى وزراء الفرنجستان . ولم يبق علينا قبل السفر إلا أن نستأذن الشاه فاستشرنا المنجمين في الساعة المباركة التي يكون فيها سفرنا ، فاختاروا اليوم الذي مات في مثله عمر بن الخطاب لأننا نحن الشيعيين نتبرك بهذا اليوم

وقبل ذلك الموعد بيوم استأذنا الشاه . ودعا الشاه السفير الإنكليزي وكان جلالته جالساً على عرش مرصع بالجواهر ، وكذلك كان البساط والوسادة التي يتكىء عليها ، وكان رئيس الوزارة ووزير المالية ووزير الخارجية واقفين على سلم العرش عندما دخل « ميرزا فيروز » ودخلت من ورائه . فاستدعى الشاه أولنا وتركت واقفاً بالباب

وقد رأى « فيروز خان » أن واجب اللياقة في هذا اليوم يقضي بأن يتصنع هيئة الحزين . وجثا أمام العرش بحالة تدل على أنه مجرم يطلب العفو أكثر من دلالتها على أنه سفير عين ليمثل الشاه

قال الشاه : « لماذا يبدو عليك الحزن ؟ هل تريد التخلص من المهمة التي عهدنا بها إليك ؟ » فتصببت الدموع من عيني السفير وقال : « كلا . كلا ، ولكني آسف يا جلالة الشاه على فراقكم »

سر الشاه من هذا الجواب وقال : « أحق هذا ؟ إنه ليرضيني منك أن تذهب إلى حيث وجهتك فتبيض وجهي في بلاد الفرنجة »

قال السفير : « إن شاء الله ! وردد الوزراء الثلاثة هذا الدعاء » ثم ابتسم الشاه وقال : « إنك ستتعرض في أثناء السفر لأخطار البحر وستتعرض في أثناء الإقامة لمعاشرة غير أبناء دينك . ولكنك سترى العجائب والغرائب من العادات والأخلاق . وسترى كل ما يخطر ببالك وأنت مقيم في فارس »

فقال ميرزا فيروز : « أطال الله عمر مولانا الشاه ولا قصر ظله . إنني أقل من التراب . وكل ما أتمنى أن يبيض وجهي في تلك البلاد لترضوا جلالتكم عني ، ولي قبل السفر أمنية أضعها على أعتاب عرشكم — ثم سكت منتظراً جواب الشاه . فقال الشاه بعد فترة : « قل ! »

قال فيروز خان : « إنني أطال الله عمرك سأتعرض للموت في البحار المتلاطمة الأمواج بين مملكتك السعيدة وبين الفرنجستان . وخطر البحر لا يذكره فارسي إلا وقلبه يرتجف . وأمنيتي أنه عند سفري يكون أهل منزلي وابني الصغير موضع عطفكم ورعايتكم وقد بسطت هذه الأمنية وجلالتكم الرأي فيها »

فقال الشاه : « أقسم برأس الشاه أن أحقق

هذه الأمنية . ضع رأسك على وسادة الثقة لأنه مهما يحدث لك فابنك عندى بمكانة ابنى . وقد عينته منذ اليوم بوظيفة فى القصر على الرغم من صغر سنه . وسيتلقى العلم مع أبنائى على أن يتسلم فيما بعد مقاليد عمله . وأجريت منذ اليوم رزقاً على أهل منزلك فكن مطمئناً »

عند ذلك جثا « فيروزخان » مرة أخرى حتى لمس الأرض بجبهته وهتف الوزراء الثلاثة : « ماشاء الله ! ما شاء الله »

وهنا حضر السفير الانكليزى ومعه شاب من أبناء جنسه وهوالذى عين مترجماً للسفارة الفارسية فى لندرا وجعل « مهمندار »

أذن لهما الشاه فى الجلوس فانحنيا ثم جلسا . وقال الشاه : « هذا اليوم سعيد الفأل على الدولتين يا جناب السفير . وإنى لأرجو أن يؤدى تعيين السفير الفارسى عندكم إلى الزيادة فى حسن التفاهم »

فانحنى السفير الانكليزى مرة وقال إنه يتمنى دوام العلائق الحسنة بين دولته وبين إيران . فقال الشاه : « أرجو أن ينال سفيرى الحظوة فى دولتكم وأرجو إبلاغ حكومتكم أنه حائز لتقتى وإنى إظهاراً لهذه الثقة أخلع عليه هذا البرد »

ثم خلع الشاه برده وأعطاه لفيروزخان فلبسه وقبل الأرض . وهنأه الوزراء على هذا الشرف الرفيع ، ثم سأل الشاه السفير الانكليزى هل هو راض عن الهدايا التى سترسل إلى ملكه ؟ فأجاب السفير على ذلك بكلمات لطيفة وقال إنه لا ينقص هذه الهدايا إلا صورة الشاه فى إطار جميل

عد الشاه هذا الجواب بديعاً ، وقال إنه كان ينتوى ذلك وإن صورته لديه الآن فى إطار مرصع بالأحجار الكريمة . وتحت هذه الصورة أبيات من الشعر نظمها شاعر الدولة « عسكرخان » وقال إن هذه الصورة مرسومة على مرآة حتى إذا مانظر إليها شاه الانكليز رأى وجهه بجانب وجه الشاه الفارسى . وقال إن هذا الخاطر البديع من مقترحات عسكرخان . وإنه فأل لتوثيق العلائق بين الملكين ودولتيهما

ثم أخرج الصورة التى تقدم ذكرها من تحت الوسادة . وأمر باحضار عسكرخان ليقرأ الأبيات أمام السفير فحضر وأنشدها انشاداً جميلاً لجمال الخط الذى كتبت به . وهذا معنى الأبيات :

« اذهبى أيتها الصورة المحسودة مزدانة برسم ملك ، فإذا ما وصلت للملك الآخر صرت مزدانة برسم ملكين . وكما ترتسم عليك رأسان متوجان فكذلك سترتسم على مرآة المحبة دولتان صديقتان ، وسيكون صديق كل دولة منهما صديقاً للدولة الأخرى والعدو عدوهما جميعاً

« إذهبى أيتها المرآة المحسودة واجمعى على صفحتك الصافية بين الأخوين »

دهش الجميع من جمال هذا الشعر ومن افتنان قائله . وأكد السفير الانكليزى للشاه أن الملك « جورج الثالث » سيسر كل السرور بهذه الصورة وبالأبيات

كنت فى أثناء هذه المدة الطويلة واقفاً عند الباب لا أجرؤ على الدخول ولا يدعونى أحد ، فلما كاد المجلس أن ينتهى وأمر الشاه « فيروزخان » بالانصراف أشار إلىّ بأن أتقدم فتقدمت وقبلت الأرض ، ودعوت لجلالته بطول الحياة فأمرنى بالوقوف وقال لى : « كن دائم اليقظة وتعلم الأشياء

النافعة لنا .. تعلم أكثر ماتستطيع تعلمه من اللغات الفرنجستانية لتترجم بعض كتبهم فإذا فعلت ذلك كنت مستحقاً عنايتنا الشاهانية

قلت : « على العين والرأس كل ما تأمرون به يا صاحب الجلالة »

ثم تقهقرت وخرجت مع فيروزخان . وكان أول مكان ذهبت إليه قبر حبيبتي « زينب » فدفنت عنـد ذلك القبر مائة « طومان »[1] لعل فقيراً مستجاب الدعوة يجدها في وقت من الأوقات فيدعو لصاحبة القبر بالرحمة

الفصـل السـادس

أعضاء السفارة

كانت السفارة الفارسية فى لوندرا مكونة من : ميرزا فيروز خان (سفيراً) . ميرزا حاجى بابا بك (سكرتيراً) . محمد بك (تشريفاتى) . إسماعيل بك (أمين مشتريات) . أغا بك (رئيس الركائب) . هاشم بك (رئيس الخدمة) . عباس بك (ياور) . حسين بك (ياور) . تقى الدين (فراش) . صادق (سايس) . فريدون (حلاق) . حسن (طباخ) . محبوب (رقيق وأمين صندوق) . سـيد (حاجب السفير)

وفضـلاً عن هؤلاء فقد كان معنا عدد كبير من خدم الاصطبل . وكان معنا أيضاً هذا المترجم الإنكليزى الذى لقبناه بمهمندار السفارة ؛ وكان قليل الإلمام باللغة الفارسية حتى لا يكاد يقوم بواجب الترجمة قياماً صحيحاً

ولقد كنت أقل الأعضاء أسفاً على فراق فارس لأنه ليس لى قريب فيها ، وكان أكثرنا حزناً على فراق فارس هو السفير نفسه لكثرة من تركه من الباكين على بعده ، وهم العبيد والجوارى وزوجته وابنه وأصدقاؤه

وكانت بلاد الفرنجستان فى نظر الفارسيين بلاداً تكاد تكون خيالية لا وجود لها إلا فى القصص . سواء أكانت حقيقية أم خيالية فإنها فى نظرنا بلاد ممقوتة لأن أهلها يأكلون لحم الخنزير

ولقد اشتهر عنى شهرة لا أعرف سببها ، أننى ملم بأخلاق الأوربيين وعاداتهم ، ولعل منشأ هذه الشهرة أننى كنت وضعت تقريراً عن أوربا وقدمته للشاه مستعيناً على وضعه برجل تركى كان موظفاً بالآستانة

وكان أعضاء السفارة يسألوننى : هل فى البلاد التى سنذهب إليها طعام غير لحم الخنزير أو شراب غير الخمر ؟ وأخذ أمين المشتريات مقداراً عظيماً من الأرز خشية ألا يوجد شىء منه فى تلك البلاد كما أخذ عدة زجاجات من شراب شيراز . وأخذ حلاقنا يتساءل : هل فى انكلترا صالون ؟ وتساءل الطباخ : فى أى نوع من الأوانى ينضج الأوربيون طعامهم ؟

ولا يفوتنى هنا أن أذكر أن المترجم الإنكليزى أرسل لحيته وشاربيه منذ أن انضم إلينا . وكان أغلب ظننا من قبل ذلك أن الفرنجة خلقوا وليس فى وجوههم منابت للشعر كأنهم بعض نسائنا

وكنت منذ عودتى من (أصفهان) أفكر فى الوسيلة التى أعامل بها «فيروز خان» بعد أن وثقت أنه يسىء الظن بى ويحسبنى سأتجسس عليه لرئيس الوزارة الذى اختصنى دونه بمهمة جمع الهدايا والذى هو عدو له لا يتكتم العداء

رأيت أمام ذلك أن أسلك مع السفير مسلكاً

(١) عملة فارسية

حسناً لكي يزيل من ذهنه هذه المخاوف ، وكنت أعرف الجانب الضعيف من نفسه ، فسهل ذلك أمر إرضائه عليّ ، فإن تجاربي السابقة دلتني على أن التفاق هو أحسن الوسائل لاستجلاب ود الإيرانيين ، فإذا ما استطاع أي إنسان أن ينطق بالكلمات المسولة فلن يصعب عليه اقتياد أي إيراني من لحيته

ولأجل أن أتمكن في كل فرصة من منافقته التزمت أن أساير في كل طريق ولا أتحرك إلا وفق حركته ، ولا أسير حتى يأمرني بالمسير ، ولا أذهب إلا حيث يوجهني ، وأن أوافقه على كل رأي وأطريه عند كل مناسبة . وقد كان يحسب نفسه خطيباً مفوهاً ويفتخر في كل مكان بأنه إنما ندب سفيراً لفصاحته وذلاقة لسانه وقوة جنانه . وهو يعلم وكل الذين حوله يعلمون أن رئيس الوزارة إنما بعث به للسفارة ليستريح الناس من ذلك اللسان

لكنني آليت على إرضائه فصرت أفسح له طريق القول بكثرة الاستفهام وحسن الاستماع . وكان كثيراً ما يجره الكلام إلى الاندفاع في التعبير عن ضغائنه والتهور في وصف خصومه . وكان في هذه الحالات يترك الحذر فيتكلم أمام الخدم والأتباع بكل ما يروقه ، فقبل سفرنا بساعات قلائل ذكر اسم رئيس الوزارة فقال : « أرجو الله أن يحرق عظام أبيه في قبره ! أرجو الله أن تتزوج أمه من حمار مثل أبيه ! أدعوه تعالى أن يسلط عليه مائة كلب تمزق لحمه وتنهش عظامه ! إن شاء الله سأتمكن من الأخذ بثأري فأنه السبب في بعدي عن أهلي ونفيي من هذه البلاد »

ثم نظر إليّ وقال : « أنت يا (حاجي بابا) رجل عرف الدنيا وخبر أهلها فهل تظن أن الشاه سيذكرني بعد أن أغيب عن بلادي ؟ وهل سيمتنع رئيس الوزارة عن دس الدسائس وإثارة الوشايات ؟ »

فقلت : « إن كل ما تظنون هو الصواب ، وإن كل كلمة تقولونها هي الحق ، وإن اشتهاركم بذلك هو الذي جعل الشاه يختاركم للسفارة . وأنت تعرف الوزراء والأعيان فقل لي بالله من فيهم يصلح لتمثيل الشاه أمام الملوك الأجانب غيرك ؟

إن الذي أعتقده أن الشاه قد اختارك من تلقاء نفسه بغير تأثير ولا اتباع مشورة لما يعرفه عنك . وإلا فقل لي إذا هو لم يختارك فأي إنسان كان يختار ؟ »

قال فيروز خان : « لا أحد يا حاجي بابا ... لا أحد يصلح لها غيري ! لقد صدقت »

وقال التشريفاتي : « ما شاء الله : مَنْ مثل مولانا فيروز خان في صفاته ؟ إنه أذكى الأذكياء وأفصح الفصحاء »

وقلت : « نعم ! نعم ! لقد اختاره الشاه من أجل ذلك ، وإذا كنا جميعاً نعرفه فالشاه لا يجهله ، ولذلك كان اختياره في موضعه »

وقال التشريفاتي : « إن جلالته ثاقب النظر صائب الرأي » . وقلت : « ليس لمولانا فيروز خان نظير في العالم كله » . وقال التشريفاتي : « أنظر إلى شخصه ! ما شاء الله ! إنه أجمل الشباب وأقوى الرجال فهو الذي يمثل الشاه وليس أي إنسان سواه بصالح لتمثيله »

وفي أثناء ذلك كان ميرزا فيروز خان يصغي إلينا وغضبه يتحول إلى سرور . والتفت إلينا بوجه متهلل بشراً وقال : « الحمد لله على هذا المنصب فان الذي قلتموه أعجبني وقد رأيته صدقاً »

الفصل السابع

سافرنا من طهران ، فلما وصلنا إلى تبريز أقمنا بها بضعة أيام جمعنا فى خلالها هدايا أخرى . ثم سافرنا إلى بلاد الأرمن وهى بلاد جرداء قاحلة قامت مدنها على سفوح جبال مكللة قممها بالثلوج . ثم تجاوزناها إلى بلاد الكرد فأرضروم . وهذه بلاد تابعة للترك يحكمها باشا يلقب نفسه ـ للإرهاب ـ بلقب البابا ذى الثلاثة الأذناب . وقد زارنا وأكرمنا وقدم للسفير هدية مثل هديته . لكنه حدث فى اليوم التالى حادث أوجد سوء التفاهم بين السفير وبين الباشا . وذلك لأن السائس صادق تخلف عنا بغير إذن ، ثم اتضح أنه ذهب إلى بلاد الأرمن لغرض من الأغراض ففضب السفير وأقسم أن يقطع أذنيه

ولما عاد سجنه أعضاء السفارة حتى ينفذ السفير حكمه فيه . ولكن الباشا التركى علم بالأمر ، ورأى أنه ليس من حق أحد غيره أن ينفذ الأحكام فى هذه المدينة ، فأرسل أحد موظفيه لإقناع فيروزخان بالعدول عن عزمه حتى يغادر الأراضى التركية

كان السفير محاطاً بأتباعه عندما جاء الموظف التركي ، وكان السفير لا يزال فى حدة الغضب والكلمات القاسية تتدفق من شفتيه ، فحياه الموظف بالسلام ثم جلس أمامه باحترام

قال السفير : « لماذا جئت ، وماذا تريد ؟ » فاستغرب التركى لهجة السؤال وقال : « لا شىء ! »

قال السفير : « هل علمت ماذا فعله هذا الكلب ؟ لقد غاب بغير إذنى ليرتكب المنكرات فى بلاد الأرمن . إننى لن أترك هذا الذنب بغير عقاب . إننى لا أترك الخير دون أن أؤديها ، وقد حلفت لا أشرب الماء حتى تصير أذناه فى جيبى . فاطمئنوا إلى ذلك يا أفندى »

قال الأفندى التركى : « إن مولاى الحاكم يهدى إليكم صباحاً شريفاً ويبلغكم أن هذه العقوبة غير مسموح بها فى هذا البلد » فاحتد السفير وقال : « ماهو غير المسموح به ؟ ماهو ؟ ماهو ؟ ألا أقطع أذنيه ؟ أنت لا تعرف ميرزا فيروز . أقسم برأس النبى وبالخبز الذى أكلته عند الشاه وأقسم بروح الباشا وبقبرك أيها الأفندى ، وأقسم برأس على أيضاً ألا أذوق الماء حتى تكون أذنا صادق فى جيبى . إننا فارسيون ولا يردنا عما نريده كلمة من الباشا »

قال التركى ولم يهتم أقل اهتمام بحدة السفير وانفعاله : « ولكن الباشا ذا الثلاثة الأذناب أمرنى أن أبلغك بأنه لا يسمح لأحد بقطع آذان الناس فى بلده » فصاح السفير الفارسى كالمجنون : « ثلاثة أذناب ! هل يهددنى بأذنابه الثلاثة ؟ قل له إن أذنابى خمسة عشر ! قل له إنها سبعون ! قل له إن لى ألف ذنب ! ومادامت أذنابه قد دخلت فى الموضوع فان أذن صادق ستقطع — ستقطع — ستقطع »

ثم نادى بالفراش أن يأتى فى الحال بأذنى صادق ولعنه ولعن سائر أعضاء السفارة . ثم التفت إلى الموظف التركي وقال وهو يتكلف العقل : « أبلغ الباشا تحياتى وقل إنه إن كان له ذنب واحد فلى خمسة عشر »

عند ذلك وقف التركى وانحنى ثم خرج وهو يقول : « لا إله إلا الله ! » وعاد الفراش عائداً وفى يده طبق به أذنان يسيل الدم منهما ، ففهم أنهما أذنا صادق

وبالرغم مما أبداه سفيرنا من الجرأة، فانه أدرك أن البقاء فى المدينة أكثر من ذلك يعرضه للخطر فقرر الخروج منها فى نفس اليوم، فخرجنا ما عدا صادق فانه أعيد إلى طهران بأمر السفير، وقد علمت أنه عاد وأذناه فى رأسه لأن الفراش قطع أذنى تيس وجعلهما كشكل أذني إنسان إرضاء للسفير فى حدته

وصلنا إلى الآستانة فرحبت بنا السلطات التركية وخصصت لنا قصراً فى اسكوتارى وعينت لنا مترجماً تركياً فى أثناء وجودنا بالعاصمة. وفى هذا الوقت تركنا مترجمنا الانكليزى، وأقام فى السفارة الانكليزية التى زرناها. ورد لنا السفير الزيارة. وبعد بضعة أيام سافرنا إلى أزمير التى يسميها الأتراك أزمير الكافرة، لنركب منها السفينة التى تقلنا إلى بلاد الفرنجستان

وقبل مغادرتنا الآستانة زار سفيرنا « الصدر الأعظم » وأهداه هدية مثلها. وبالرغم من المداوة المتأصلة بين الأتراك وبين الفارسيين، فقد أظهر الوزير التركي عطفه علينا لما أخبرناه بأننا سنسافر إلى بلاد الانكليز. وحذرنا من مكرهم وخداعهم وقال إنهم دهاة يتلاعبون بأقوى الرجال

لكن الاتراك أقدر منا على كتمان ما بأنفسهم ولذلك لم يظهر لنا أحد الأتراك عداوة بعكس فيروزخان الذي أظهر عداوته للترك فى عدة مواضع. فمن أمثلة ذلك أنه اجتمع فى حفلة مع بعض الأتراك العصريين الذين يشربون الخمر ويستمعون إلى الغناء فى السهرات العامة. فقال أفندى تركى إن الموسيقى التركية قد أصبحت من أرقي موسيقات العالم لتطورها وتشبعها في العهد الأخير بالروح الأوربية وقال إنه يسمع الموسيقى الفارسية فيخال أن المطر يتساقط

فأجابه سفيرنا محتداً: « وأنا أسمع الموسيقى التركية فأخال أن الحمير تنهق »

الفصل الثامن

التركسية

كان ممن زارونا أيضاً مدة وجودنا فى الآستانة وزير الخارجية وكبار الموظفين فى تلك الوزارة، وكان وزير الخارجية مشغوفاً بآداب اللغة الفارسية فأهدى سفيرنا نسخة مذهبة من ديوان حافظ الشيرازى. وكان هذا الوزير واسمه يارك افندي من أرق الناس وأكثرهم أدباً وظرفاً، وقد أهداه السفير جواداً لما علم من محادثته أنه من هواة الخيل. ولكن هذه الهدية أوقعته فى حيرة لأنه لم يعرف كيف يرد لنا الهدية التى تقابلها. فعندنا منسوجات أجود من المنسوجات التركية، وكذلك الشيلان والسجاجيد ولا يليق أن يهدينا من البضائع الانكليزية ونحن مسافرون إلى انكلترا. ولكنه بعد تفكير وجد ضالته وعزم على أن يهدى السفير الفارسى جارية شركسية أجمل من القمر ليلة النصف، وقال إنه اشتراها من تاجر من تجار الرقيق يدعى « خرسيس أوغلو »، وإن ذلك التاجر أخبره بأنها أميرة من أميرات بلادها، ولكنه لا يصدقه وهو يرجو على كل حال أن يسر « فيروز خان » بهذه الهدية

طلبني هذا الوزير التركى وعرض علىّ أن يرسل هذه الهدية إلى مولاى فتظاهرت بأننى أجهل ذوقه ووعدته بأن أستشيره وأخطره برأيه

ولما عدت إلى السفير أخبرته فرفض الهدية فى

بادئ الأمر ثم تردد فى قبولها ، ثم رأي أنه لا يليق رفضها ، فوافق على شرط إخبار الوزير بأنه كان يود أن تكون الهدية من نوع آخر

وعند انتهاء هذا النهار جاء خادم الوزير يقود جواداً على ظهره هذه الشركسية مبرقعة لا يظهر شيء من وجهها ولا من جسمها فأعطى السفير الخادم التركى مبلغاً كبيراً من المال . وذهبنا لنزور الشركسية ثم اجتمعنا بعد ذلك ولم يكن السفير بيننا فقال التشريفاتى : « لو كانت زوجة السفير حاضرة لضربته حتى مزقت جلده على قبول هذه الجارية »

وقال تقى الدين : « إن السيدة بعيدة عنا الآن وستتغير الأحوال قبل عودتنا »

وقال سعيد : « لو أن الجارية من أى جنس آخر لكان شرها مأموناً . أما وهى شركسية فإن خطرها شديد لأن هذا الجنس ملعون »

فقلت : « ليس لنا إبداء رأينا فى هذا الشأن فالجارية متاع خاص من أمتعة السفير وهو وحده صاحبها »

قال الجميع : « نعم نعم وإننا لنكون أحط من الكلاب إذا ظننا غير ذلك »

وفى الصباح التالى أخبرنى السفير بقصة الجارية كما سمعها منها ، وهى أنها بنت زعيم شركسى كان يقيم بالقرب من شاطئ البحر الأسود . وكان لقسوته على قبيلته يلقب بابن الشيطان ، وكان سكيراً يندفع وراء عواطفه إلى الغايات ، وكانت المغامرة أحب شيء لديه فهو يضحى من أجلها بكل شيء ، وقد تراهن مع زعيم قبيلة مجاورة وهو أغنى وأقوى منه ، فجر على نفسه الدمار ، لأنه اضطر بسبب الخسارة التى لحقت به إلى بيع كل شيء من أملاكه وأرقائه على أن ذلك لم يكف فلجأ إلى وسيلة لا يلجأ إلى مثلها إلا شيطان مثله . وذلك بأن دعا عدداً من أفراد القبيلة إلى حفلة شراب فلما سكروا استدعى تاجر الرقيق فحملهم بواسطة أعوانه إلى الشاطئ ونقلهم على السفن . ولكن التاجر نقل معهم بعض أفراد الأسرة ومنهم زوجة الزعيم وابنتاه وابناه وأخوه

وفى أثناء الطريق رأوا كاهناً يمشى فنقلوه أيضاً مع الرقيق ، وقد بيعوا إلى أفراد مختلفين . وكان حظ الشركسية فى بيت الوزير ، وعرف أن اسمها مريم ولكنه أصر على تسميتها باسم « دلغريب » أى مستعبدة القلوب لما لجمالها من سلطان

وقد وصف السفير جمالها بأنه أروع ما رآه . ووصف ذكاءها بأنه نادر ، وقال إنه سيعلمها الفنون المختلفة التى تجعل لها مكانة ممتازة فى بلاد الأوربيين وقد وجد عندها أتم استعداد لتعلم الخياطة والطبخ والرقص والموسيقى والغناء ، وكل ما تمتاز به امرأة على أخرى . وقال إنها لا تعرف شيئاً عن الدين ، ولكنها قبلت أن تكون مسلمة ونطقت بالشهادتين

قال السفير : « من يدرى ؟ لعلها تكون سبباً فى سوء حظى أو رفعته »

الفصل التاسع

أعضاء السفارة يغادرون أزمير على ظهر الباخرة

وصل إلينا الخبر بأن باخرة انكليزية تحرسها مدرعة حربية فى انتظارنا بأزمير لتقلنا إلى لندن . فسافرنا إلى تلك المدينة ووجدنا فيها — خلافاً لما نعهده فى البلاد الأخرى — عدداً كبيراً من التجار الأوربيين واليونان والأرمن . ولعل الأتراك سموها

من أجل هـذا السبب بالمدينة الكافرة . وأهلها يشربون الخمر جهاراً فى الأماكن العامة والخنازير تمشى فى أزقتها . وقد نزلنا فى هذه المدينة بمكان أعدته لنا الحكومة

نقلت أمتعتنا وخيولنا إلى السفينة التى سنسافر عليها كما نقل إليها مقدار عظيم من الماشية واللبن والطيور والماء

وسئل السفير هل يحب أن ينام على سرير ثابت أو متحرك ؛ فعجبنا من هذا السؤال لأننا لا نعرف مكاناً للنوم غير المراتب المحشوة بالقطن والتى ننقلها ونبسطها على الأرض وننام فوقها . وتركنا الاجابة على السؤال حتى نعاين النوعين فى السفينة واتضح لنا فيما بعد أن السرير الثابت فى السفينة هو الملتصق بحائطها ، وأن السرير المتنقل يثبت من أطرافه الأربعة فى الحائط وليس بينه وبين الأرض قوائم

وقد كنا نجهل شكل السفن لأننا لانعرف فى بلادنا غير الزوارق . ولكننا لما رأينا السفينة دهشنا لأنها مدينة صغيرة ، ففيها غرف وشوارع وأماكن للخيل وأخرى للبضائع وأماكن خاصة بالآلات البخارية

ولمعرفة المترجم بعاداتنا أوصى بأن يجعل فى السفينة مكان للشركسية بعيد عن أنظار الرجال . ولما طلب إلينا الاستعداد للسفر استدعى السفير التشريفاتى « محمد بك » وهو على علم بمبادىء الفلك . وأمره أن يبين لنا الوقت المناسب للسفر . وقبل أن يجد الفرصة الكافية لأبحاثه فى النجوم جاء ربان السفينة مع المترجم واستعجلنا وقال :

إن هـذا أنسب وقت للسفر فالريح ملائمة . لكن السفير رفض أن يتحرك حتى تدله النجوم على الساعة الميمونة . وإنه مهما تكن أفكار الانكليز فانه غير مستعد للمخاطرة بحياته فى البحار وبسفينة يقودها الكفار إلا فى ساعة ميمونة

وعبثا حاول المترجم والربان إقناعه بأنه ما دام الأمر متعلقاً بالسفر بحراً فالساعة الميمونة هى التى تهب فيها الرياح الملائمة . وإنه إذا أصر على التأخر فربما تغير الجو واضطرت السفينة إلى التأخر لموعد آخر قد يكون أيضاً ملائماً للرياح ولكنه لا يلائم علم الفلك

وعندما يئس الانكليزيان وهما بالذهاب حدث حادث عددناه فألاً واستغنينا به عن علم الفلك ، وذلك أن السفير عطس مرتين ، وكل فارسى يعرف أن هذا الفأل الحسن يدل على أن الساعة مناسبة للسفر فقال السفير : « الحمد لله لقد أذن الله لنا بالانتقال » وأعلن موافقته على السفر

فلم ينتظر الانكليزيان حتى تضيع هذه الفرصة بل طلبا إلينا القيام فى الحال ، فمشى السفير ومشيت بجانبه ووراءنا الربان والمترجم ثم سائر أعضاء السفارة فلما وصلنا إلى الشاطئ سمعنا صفيراً يصم الآذان ، ثم رأينا على سوارى السفينة أناساً من الانكليز كالبهلوانات يمشون فوق الحبال (كالشيخ على) بهلوان شيراز ؛ وفى أقل من لحظة رأينا هؤلاء البهلوانات يرفعون الأعلام على السوارى ، والغريب أنه على كثرتهم لم يقع أحد منهم عن الحبل وإن فيهم عدداً من الصغار فى السن لا يقلون مهارة عن كبارهم

ولما صعدنا سلم السفينة ازعجنا أشد انزعاج لأن مدفعاً فيها أخذ يطلق القنابل فكادت أرواحنا تغيض من الفزع ، وقال السفير : « بسم الله الرحمن الرحيم ! ما معنى إطلاق المدافع الآن ؟ هل أعلنت الحرب فجأة ؟ وسكتنا جميعاً لأننا لم نجرؤ على الكلام

حتى انقطع دوي المدافع ووقف المترجم الانكليزي أمام السفير وقال : « إن المدافع أطلقت تكريماً لسعادته وأن الانكليز لا يحيون بهذه التحية غير الملوك وممثليهم »

فقال السفير : « أشكر لكم هذه التحية وإن كنتم أزعجتموني . ولكن لماذا هذا الاسراف في القنابل ؟ إن عدد الطلقات التي أطلقت تكفي لتخريب مدينة « طوس » فكم عدد المدافع التي تملكونها ؟ »

فأجابه المترجم : « في هذه السفينة ٤٤ مدفعاً وهي مدافع صغيرة لا تستعمل في الحرب وعدد المدافع التي تملكها الدولة لا يحصى »

قال السفير : « هل تعني أربعاً وأربعين بالعدد أم على سبيل التقدير كما تقول ستين يوماً مثلاً أو أربعين ليلة ، والقصد أنها أيام وليال كثيرة ؟ »

فقال المترجم : « كلا بل أقصد إلى العدد بالذات » وقال ربان السفينة بواسطة المترجم : « إن بعض السفن تحمل أربعة أمثال هذا العدد أو أكثر وأحجام مدافعها أكبر كثيراً من أحجام هذه المدافع »

قال السفير : « لا إله إلا الله ! » ثم التفت إلينا وقال : « ألم أقل لكم إن الانكليز يجدون المدافع بهذا الشكل في مناجمهم ؟ لقد صدق رأيي فان مئات من الأعوام لا تكفي كل الحدادين لصنع هذا العدد من المدافع

فقلنا : « نعم نعم نحن آمنا وسلمنا بما قلت ساعة أخبرتنا به . إن هؤلاء الانكليز كالشياطين ليسوا كالرجال ، وستجد أحاديث غريبة نتحدث بها عنهم عند ما نرجع إلى إيران »

ولم نكد نفرغ من حديث قصير أقل من النية للصلاة حتى رأينا السفينة تتحرك على ظهر الماء فقال السفير : « لقد أصبحت أرواحنا في يد الله فمن يدري هل نعود إلى أهلنا سالمين ؟ »

ثم تلا كل منا الشهادتين استعداداً للموت

(يتبع) عبد اللطيف النشار

مجموعات الرسالة

تباع مجموعات الرسالة مجلدة بالأثمان الآتية

٥٠	السنة الأولى في مجلد واحد
٧٠	كل من السنوات الثانية والثالثة والرابعة والخامسة في مجلدين

وذلك عدا أجرة البريد وقدرها خمسة قروش في الداخل وعشرة قروش في السودان وعشرون قرشاً في الخارج عن كل مجلد

المجموعة الاولى للرواية

١٥٣٦ صفحة

فيها النص الكامل لكتاب اعترافات فتى العصر لموسيه ، والأوذيسة لهوميروس ، ومذكرات نائب في الأرياف لتوفيق الحكيم ، وثلاث مسرحيات كبيرة و ١١٦ قصة من روائع القصص بين موضوعة ومنقولة .

الثمن ٣٤ قرشاً مجلدة في جزءين

و ٢٤ قرشاً بدون تجليد

خلاف أجرة البريد

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدي رقم ٧)